الكتاب الأول

«القرآن والمنهج العلمى المعاصر»

تأليف: المستشار عبد الحليم الجندى **عرض: أ. د. محمد شوقى الفنجرى**

كتاب **(القرآن والمنهج العلمى المعاصر)**، صدر للمؤلف فى **ختام عام ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ونشرته دار المعارف بالقاهرة**، ويقع فى «٣٥٣» ثلاثمائة وثلاثة وخمسين صفحة من الحجم الكبير يشمل مقدمة وفهارس، فجاء هذا الكتاب فى قمة مؤلفاته الإسلامية؛ إذ هو **خلاصة قراءاته الواسعة واجتهاداته الكثيرة خلال نصف قرن. وهو فى حقيقته موسوعة إسلامية موثقة، وإن جمعتها رابطة واحدة** هى بيان المنهج القرآنى، والذى التزم به المسلمون فى عهودهم الأولى، فكانت لهم العزة والتقدم، وصارت لهم حضارة تجاوزت كافة الحضارات التى عرفتها الإنسانية حتى اليوم.

ولقد أظهر الكاتب بجلاء كيف أنه بفضل هذا المنهج القرآنى، ظهر على امتداد العالم الإسلامى بآسيا وإفريقيا وأوروبا (الأندلس) أئمة وعلماء مسلمون جهابذة فى مختلف ضروب العلم وأنشطة الحياة.

وتميزوا بأنهم كانوا علماء «ربانيين» لا يستهدفون من بحوثهم واجتهاداتهم سوى وجه الحق ـ تعالى ـ ثم الصالح العام. وإنه لم يهن المسلمون ولم يضعفوا إلا حين حادوا عن المنهج القرآنى، وبعدوا عن روح الإسلام.

ولقد **دلل الكاتب بما فيه الكفاية على أن المنهج العلمى المعاصر** الذى نسب إلى المفكر الإنجليزى فرنسيس بيكون (١٥٦١ ـ ١٦٢٦م)، إنما أخذ عن علماء المسلمين،

حيث انتقل المنهج الإسلامى إلى أوروبا من خلال الأندلس (إسبانيا) وصقلية (إيطاليا). ولكن هؤلاء جردوه من صبغته الربانية وأهدافه السامية، فكان هذا الاضطراب والتخبط الذى تعانيه الإنسانية، وكان ذلك القلق والصراع الدموى الذى يتجرع عالمنا المعاصر مرارته.

وليس لهذا العالم من نجاة أو عزة، إلا بالعودة إلى المنهج القرآنى بجناحيه التجريبى والإيمانى.

المنهج القرآنى

لقد كان المنهج السائد قبل ظهور الإسلام هو **المنهج اليونانى (منطق أرسطو)** المبنى على الفروض لأعلى المدركات الحسية (الاستقرائية)، فهو منهج نظرى فرضى بحت يبدأ بالعموميات «المرسلة» ليصل إلى الجزئيات، ويكرر النتائج فى المقدمات، وبسببه تجمد فكر اليونان، وباتباعه أوقف المنهج الكنسى التقدم العلمى. بخلاف الأمر فى الإسلام، فقد جاء القرآن بمنهج التأمل فى الكون والطبيعة، واستقراء المشاهدات وعلل الأشياء، والبحث فى الأرض والسماء، واستعمال العقل للاعتبار، توصلاً للإيمان، والارتفاع بالنفس والسلوك والحياة إلى مستوى التقوى بدافع الخشية والرجاء فى الله ـ تعالى ـ. **فآيات القرآن ـ كما عبر بحق الكاتب فى صفحة ٥٠ ـ تتنادى (تأملوا الحقائق، وستقودكم الحقائق إلى الإيمان).**

وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ (البقرة: ١٦٤)، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ**﴾ (الذاريات: ٢٠، ٢١). بل ينذر القرآن الغافلين بقوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ**

أضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الأعراف: ١٧٩)، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٢). وينعى القرآن على من يتبعون الظن بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (النجم: ٢٨)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١).

وينقل المؤلف فى صفحة ١٥٣ عن **الإمام القزوينى** أن آيات القرآن تتواتر بالدعوة إلى النظر فى السماء والأرض وسائر المخلوقات، وأن (المراد من النظر التفكير فى المعقولات والبحث فى «المحسوسات». . . وأن هذا النظر لا يتأتى إلا لمن له خبرة بـ «العلوم والرياضيات» وبعد تحسين «الأخلاق» وتهذيب النفس.

وينقل المؤلف فى صفحة ٩٢ و١٩٩ عن **شيخ الإسلام ابن تيمية** قوله: «ليست العلوم النبوية مقصورة على مجرد الخبر كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام ويجعلون ما يعلم بالعقل قسيمًا للعلوم النبوية، وهذا خطأ. إن العلم هو علم محمد ﷺ، وعلم فى ميراث محمد ﷺ. لقد بين ﷺ مختتمًا دوره للرسالة العظمى، العلوم العقلية التى يتم بها إيمان الناس وضروب الأمثال وكانت الفطرة بما يثبتها عليه؛ ولذلك أتى الخبر من السماء: القرآن والحديث، بهذا يبين الحقائق لا بطريقة حديثة فقط من القصص العلمية» فبين طريقة التسوية بين المتماثلين والتفرقة بين المختلفين. . فأنزل على القلوب من العلم ما تزن به الأمور حتى تعرف التماثل والاختلاف، وتضع من «الآلات الحسية» ما يحتاج له فى ذلك» كما وضعت موازين النقد وغير ذلك. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ (الرحمن: ٧ـ٨) فالميزان هو العدل، وما يعرف به العدل هو القياس القرآنى المنزل ليتعرف به صحيح الفكر من باطله، بالإضافة إلى أن تزن الأمور عامة «حسية» أو «عقلية».

كما ينقل فى صفحة ٥٣ عن **الإمام محمد عبده قوله**: «قالوا: إن بيكون هو أول من جعل التجربة والمشاهدة قاعدة العلوم العصرية، ذلك حق فى أوروبا، وأما عند العرب فقد وضعت هذه القاعدة عندهم لبناء العلم عليها فى أواخر القرن الثانى من الهجرة،

لقد نقل جوستاف لوبون عن أحد الفلاسفة الأوروبيين أن القاعدة عند العرب «جرب وشاهد تكن عارفًا، وعند العربى إلى ما بعد القرن العاشر من التاريخ المسيحى: «اقرأ الكتب وكرر ما يقوله الأساتذة تكن عالمًا».

موسوعة علمية إسلامية

والصلاة هى المنهج الحتمى فى القرآن الذى هو منهج تجريبى عملى يستخرج الخصائص والصفات ويحتكم إليها، وينتقل من المعلوم اليقينى إلى المجهول المستكشف فى كل أبواب المعرفة واختبارات المواد دون أن يقتصر على ما يسمى الاجتهاد الشرعى، **حتى لقد تولد على يد الإمام الشافعى** (١٥٠/ ٢٠٤هـ) فى القرن الثانى الهجرى ما أسماه بـ «**علم أصول الفقه**»، وتولد على يد الجاحظ (٢٥٥هـ) فى القرن الثالث الهجرى ما أسماه بـ «**علم التجربة**».

نجد الكاتب للدلالة على هذا المنهج العلمى الذى جاء به القرآن، ينتقل بنا خلال الصفحات من ١٠٣ إلى ١٦٦ **بين أئمة وقادة الإسلام، يستوى** فى ذلك أئمة الدين والفقه والمتكلمين ويختار منهم خمسة أمثلة، أما أئمة العلوم التطبيقية من رياضة وكيمياء، وفلك، وطب، وموسيقى فيختار منهم خمسة عشر عالمًا. وللأهمية نشير إليهم باختصار فيما يلى، منتقين فى سطور وجيزة أهم ما عرف عنهم، وكذا بعض مواقفهم متأثرين بمنهج القرآن:

١ ـ الإمام جعفر الصادق (سنة ١٤٨هـ):

ونراه يتبع الاستقراء لاستنباط وجود الخالق من مخلوقاته، ويستعمل دليل الشاهد على الغائب، وينهى عن اتباع قول بغير دليل، ويصاحب مجادله فى طريق الاستقراء المليء بآيات الله المالكة للإحساس، الرافعة قلوب البشر من عمق الغفلة إلى مستوى العلم.

٢ ـ الإمام أبو حنيفة (سنة ١٥٠هـ):

ونراه يجيب مجادليه فى وجود الله بقوله: «إذا لم يجر فى العقل وجود سفينة مشحونة بالأحمال، مملوءة بالأمتعة والأثقال، تجرى مستوية عارفة طريقها فى لجة

البحر، من غير متعهد أو مجر لها، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها من غير صانع وحافظ ومحدث لها؟».

٣ ـ جابر بن حيان (سنة ١٦١هـ/ ٧٧٨م):

وهو تلميذ الإمام جعفر الصادق، ويعتبر أول كيميائى فى التاريخ، وإمام التجريبيين فى جميع العصور، وهو القائل: «إياك أن تجرب أو تعمل حتى تعلم، ويحق أن تعرف الباب من أوله إلى آخره بجميع تنقيته وعلله، ثم تجرب ليكون فى التجربة كمال العلم»، ويقول: «اتعب أولاً تعبًا واحدًا، واعلم أنك لا تصل، ثم تصل إلى ما تريد.. وما افتخر أحد بكثرة العقاقير، ولكن بجودة التدبير، فعليك بالرفق والتأنى».

٤ ـ الخوارزمى (٢٣٥هـ/ ٨٥٠م):

وهو عالم الرياضة والجبر والكسور العشرية، وعن طريقه عرفت أوروبا الأرقام الهندية وعلم الجبر، حتى إن اصطلاح «ولغاريتم» عرف باللاتينية عن اسمه، ويقول كاجورى مؤرخ الرياضيات: «إن القوى العجيبة فى علم الحساب والجبر واللوغاريتمات تعزى إلى العرب».

٥ ـ الكندى (٢٥٢هـ/ ٨٧٨م):

وهو فيلسوف العرب، وأستاذ اللغة العربية، وعالم الهندسة والفلك والكيمياء والطبيعة والموسيقى. ويقول عنه روجر بيكون: «إن الكندى والحسن بن الهيثم فى الصف الأول مع بطليموس»، ويقول عنه الإيطالى كاردانو: «إنه واحد من الاثنى عشر عبقريًا الذين ظهروا فى العالم».

٦ ـ الجاحظ (٢٥٥هـ/ ٨٦٨م):

وهو أديب اللغة العربية وزعيم فرقة من فرق المعتزلة تسمى الجاحظية، ولم تشغله معاركه الفكرية عن مخالطة أهل المهن ليتحدث عن تجاربهم، بل وأن يجمع الحيوانات والطيور ويضعها فى أوان زجاجية ليراقب سلوكها إذ تجتمع، وقد يبقر بطونها ليعرف ما فيها.

٧ ـ أبو بكر الرازى (٢٣٠هـ/ ٩٢٥م):

ويسميه المؤرخون «جالينوس العرب» ولما مرضت عينه وطلب إليه الطبيب خمسمائة دينار لعلاجه. تعلم الطب وأصدر كتاب «من لا يحضره الطبيب» ليخدم العاجزين عن أجور الأطباء. وهو أول من أجرى تجارب على القردة، واستعمل الخيوط المصنوعة من أمعاء الحيوانات فى خياطة الجروح؛ إذ جرب تفاعلها الكيميائى مع الجسم وامتصاصه لها، وهو أول من استنبط أثر الموسيقى لا لدفع الملل فحسب، وإنما للشفاء من بعض الأمراض، مع إضافة بعض العقاقير.

٨ ـ المسعودى (٣٤٦هـ/ ٩٥٦م):

وهو مؤرخ وعالم جيولوجى وفلكى، وأول من تكلم عن كروية الأرض ودورانها حول الشمس، ودوران سائر الأفلاك فى الكون. ومن فكره الثاقب اقتراح تغيير الطبيعة بوصل البحرين الأبيض المتوسط والأحمر بقناة، وهو ما حققه المصريون بعد ثمانمائة عام. وكان أول من أثبت أثر البيئة والأوضاع الاقتصادية على الإنسان والسلوك، والعلاقة الوثيقة بينهما، حتى اعتبره ابن خلدون «إمام المؤرخين».

٩ ـ أبو الريحان البيرونى (٣٥١هـ/ ٦٩٥م):

وهو موسوعى المعرفة، فقيه وأديب فلكى ورياضى وكيميائى وطبيعى، وكان يرى العلم عبادة، حتى إنه حين أهدى إليه السلطان جمالاً محملة فضة، وزعها على الفقراء قائلاً: إنه يخدم العلم لا المال. ودخل عليه فى مرض موته أحد فقهاء عصره فسأله كيف قلت لى يومًا حساب الجدات الفاسدات (ميراث الجدة الأم)، فلما لاحظ إشفاقه عليه قال له: «يا هذا أدع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، ألا يكون خيرًا من أن أخليها وأنا جاهل بها».

١٠ ـ الحسن بن الهيثم (٣٥٤هـ/ ٩٦٨م):

وهو مكتشف علم الضوء، وأول من خطأ نظريات إقليدس وبطليموس فى أن العين ترسل أشعة بصرية، وأخذ بنظرية أن الجسم المرئى هو الذى يرسل أشعته، ويستخدم مصطلحات القرآن والفقه الإسلامى، فيقول فى رسالته عن الضوء: «هذا

المعنى يفسد عند السبر والاعتبار». وللحسن بن الهيثم عدد ٤٧ كتابًا فى الرياضيات وعدد ٥٨ كتابًا فى الهندسة، انتفع بها روجر بيكون، ثم كيلر وليونارد وكورنيكس. وكان يقيم بجوار الأزهر، متعيشًا على نسخ الكتب المهمة وبيعها مستغنيًا ـ رغم مكانته ـ عن عطاء الخليفة.

ويقول عنه الدكتور مصطفى نظيف مدير جامعة عين شمس فى منتصف القرن العشرين: «ينبغى أن نستبدل بأسماء روجر بيكون وموروليكوس وكيلرودى لابورا، اسم الحسن بن الهيثم، فعلى يده أخذ علم الضوء وجهة جديدة بمنهجه الإسلامى، وهو الجمع بين الاستقراء والقياس، وأن أثره فى علم الضوء ليس بأقل من أثر نيوتن فى الميكانيكا».

١١ ـ ابن سينا (٣٧٥م ـ ٤٢٨هـ):

وقد ألف فى الأدب والفقه والفلسفة والعلوم والفلك والطب والموسيقى عدد ١٠٧ مؤلفًات، وكان يقول: «كلما تحيرت فى مسألة، صليت وابتهلت إلى مبدع الكل، حتى فتح لى المنغلق ويسر المتعسر».

وكان كتابه الموسوعى فى الطب (القانون) كما سجل وليم أوسلر هو: «الإنجيل الطبى لأطوار من الزمان لجامعات أوروبا حتى سنة ١٧٠٠م منذ ترجمة جيرار الكريمونى إلى اللاتينية فى القرن الثانى عشر للميلاد، ثم طبع أكثر من خمس عشرة طبعة بمختلف اللغات الأجنبية». وبلغ تأثير ابن سينا فى علماء أوروبا فى القرون الماضية منذ القرن الثالث عشر الميلادى قول رينان: «إن الخبير الألمانى ألبرت الكبير مدين لابن سينا فى كل شىء، وإن القديس توماس الأكوينى مدين فى جميع فلسفته لابن رشد».

١٢ ـ الإمام الغزالى (٥٠٥هـ/ ١١١١م):

وقد وصفه أستاذه إمام الحرمين الجوينى بأنه «بحر مغدق»، وكانت ترجمات أرسطو وأفلاطون قد ذاع أمرها فى الوسط العلمى من كتابات الفارابى وابن سينا، فانشغل بدراسة الفلسفة اليونانية وألف فيها كتاب (مقاصد الفلاسفة)، فلما استوثق من فسادها ألف كتابه (تهافت الفلاسفة).

وساح فى الأرض عشر سنين يبحث عن الحقيقة ليصل بالخلوة ومجاهدة النفس إلى عالم اليقين والطمأنينة، ويؤلف فى خلوته بالجامع الأموى كتابه الفريد (إحياء علوم الدين)، ثم يعود إلى تدريس الفقه ويؤلف كتاب القمة (المستصفى). وهو من أغزر المؤلفين إنتاجًا، وعنه أثر (من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال). وقد اجتمع فى فكر الغزالى وعمله: العقل والشرع، مع تنزه القلب عن أدران الحياة الدنيا، وهو القائل (العقل كالأساس، والشرع كالبناء).

١٣ ـ عبد اللطيف البغدادى (٥٥٧هـ ـ ٦٢٩م):

وهو فقيه شافعى، وأستاذ لغة وبيان، وصاحب تجارب خالدة الأثر فى الطب. وباتباع البغدادى المنهج الإسلامى، يذكر له التاريخ الفضل فى تصحيح أخطاء جالينوس والأطباء بعده. وقد نقد البغدادى فلسفة ابن سينا، كما نقدها من قبله الإمام الغزالى، ومن بعده ابن رشد، ولكنه انفرد بحدة النقد بقوله: «وأقوى من أضلنى ابن سينا بكتابه فى الصنعة، الذى أتم فلسفته، والتى لم تزدد بالتمام إلا نقصًا».

١٤ ـ ابن طفيل (٥٨٦هـ/ ١١٨٥م):

وهو صاحب الكتاب المشهور (حى بن يقظان) الذى يولد فى جزيرة لم يعرف بها بشرًا، فيسلك طريق العلم والحدس، ليصل إلى أن الإنسان يحقق وجوده وينجو من الشقاء ويبلغ غاية السعادة عن طريق اتباع الفطرة والولاء للحق ـ تعالى ـ وحده، وابتغاء وجهه ـ سبحانه ـ. فيصل فى النهاية إلى ضرورة الإسلام، بتسليم الإنسان نفسه إلى الله، وأن فى العبودية لله وحده والاستسلام إليه ـ سبحانه ـ جوهر السعادة، وعين التحرر والعزة.

١٥ ـ ابن رشد (٥٨٥هـ):

وقد اشتغل فى الأندلس بالقضاء والفقه والفلسفة والفلك والطب. ويعتبر كتابه (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) مرجعًا للقضاء المالى والفقه المقارن فى جميع العصور. وهو القائل (من اشتغل بعلم التشريح ازداد إيمانًا بالله تعالى)، ويؤكد (أن الإنسان لا يصل إلى الكمال إلا بالدرس والتحصيل والتفكير مع التزام الأخلاق والطهارة). وقد تواترت تآليفه فى الأخلاق والمنطق والطبيعة وشروح الفارابى على مختلف المسائل،

والرد على ابن سينا فى تقسيم المخلوقات، والرد على كتابى الغزالى (تهافت الفلاسفة) بكتابه (تهافت التهافت)، وفى شرحه لأرسطو بين ما يخالف فيه أرسطو الكتب المنزلة ورده عليه.

١٦ ـ القزوينى (٦٠٥ ـ ٦٨٢هـ):

وهو قاض وفقيه ومفسر للقرآن، وإمام فى الحديث، وأستاذ فى الجغرافيا، ومن أهم كتبه (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) وكذا (آثار البلاد وأخبار العباد)، وقد بيَّن أسباب تأليفه لهما بأنه «قد حصل لى بطريق السمع والبصر، وبطريق الفكر والنظر، حكم عجيبة وخواص غريبة أحببت أن أقيدها». ولقد أبرز بحق المنهج القرآنى حين أوضح بجلاء أن قوام الحياة هو التعبد بالعلم، وأن مناط العلم هو «التجربة» مع الالتزام «الأخلاقى».

١٧ ـ ابن البيطار (٦٤٦هـ):

وقد ظل كتابه (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) مرجعًا حتى العصور الحديثة، وبيَّن منهجه الإسلامى بقوله: «لقد وقع الكثير فى وهم أو غلط لاعتمادهم على الصحف والنقل، واعتمادى على التجربة والمشاهدة». ويقول أبرز تلاميذه ابن أبى أصيبعة صاحب كتاب «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء» وكان يصحبه فى بعض رحلاته للمشاهدة والتحقيق: «لقد شاهدت فى خارج دمشق كثيرًا من النبات فى مواضعه».

١٨ ـ التيفاشى (٦٥١هـ):

وهو عالم جيولوجى يصنف المعادن تصنيفًا يتبعه العلماء حتى الآن، ويسجل له السبق فيما يسمى بتجربة الشعلة Element Flame Test فيما يتعلق بحجر اللاذورد.

١٩ ـ ابن النفيس (٦٧٨هـ/ ١٢٩٦هـ):

وهو فقيه تخرج من الأزهر واشتغل بالطب، وكان أول من اكتشف الدورة الدموية. وينتقد قول ابن سينا أن فى القلب ثلاثة بطون بقوله: «هذا قول لا يصح؛ فالتشريح يكذب ذلك.. والقلب له بطنان فقط»، وهذا يدل على أنه مارس التشريح، فى وقت شاع فيه عدم التعرض لحرمة الجثث.

٢٠ ـ ابن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨هـ):

وهو فقيه وقاض ومؤسس علم الاجتماع، وقد ولد بتونس، وحبس بفاس ليخرج من حبسه فيتولى ديوان المظالم، ثم السفارة بإشبيلية بالأندلس، ثم يستقر بمصر.

وأخذاً بأمره ـ تعالى ـ بالسير فى الأرض والاعتبار بسنن الكون، يصدر خلال فترة إقامته بمصر كتابه «العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر»، وقد اشتهر بمقدمته «مقدمة ابن خلدون»، حيث يطلع على الناس بفرع جديد من فروع العلم بالتاريخ هو منهج «العبرة» بواقع المشاهدة من أحوال الدول وأدوارها فى الوجود، لا مجرد رواية الحوادث على ما جرت به أقلام المؤرخين قبله. وهكذا أنشأ بمنهج القرآن فى الاستقراء والاستنباط علماً جديداً سمى بعلم الاجتماع، على نمط علم أصول الفقه الذى نشأ على يد الإمام الشافعى.

ومن خلال هذا العرض الدقيق لجهود وفكر بعض أئمة وقادة الإسلام، بالتزامهم بالمنهج القرآنى فى النظر والاستقراء، يقدم لنا الكاتب المستشار العالم عبد الجليل الجندى موسوعة علمية إسلامية بلغت الذروة. ورغم إيجازها، فقد أحسن المؤلف اختياراته، **فجعلنا نستشعر بعمق عظمة الإسلام ممثلاً فى هؤلاء الأئمة والقادة الذين وعوا القرآن وأدركوا منهجه، فاستضاءت قلوبهم بنوره، وضربوا لنا المثل بتفكيرهم** وسلوكهم ومواقفهم الإسلامية، وتركوا لنا كنوزاً واجتهادات وإضافات جديدة فى مختلف ضروب العلم وأنشطة الحياة.

ولم يفت المؤلف أن يقدم لنا فى صفحة ١٩١ وما بعدها ثبتاً **للمصطلحات الإسلامية فى مختلف ضروب العلم، والتى دخلت إلى اللغات الأوروبية بهجائها ونطقها**. كما كشف عن دور علماء المسلمين فى مواجهة المعطيات والمترجمات من اللغات اليونانية والفارسية والهندية، وكيف نظروا إليها على ضوء مفهوم التوحيد الخالص فقبلوا منها وردوا وصححوا كثيراً من أفكار عمالقة الفكر القديم كأرسطو وجالينوس، وما أخذوه من هذه المعطيات جعلوه مادة خاماً صهروها فى بوتقة منهجهم القرآنى ونظرتهم إلى بناء المجتمع الربانى والحضارة الإسلامية العالمية.

كما لم يفته أن يخصص باباً مستقلاً من صفحة ٢٦٣ إلى صفحة ٣٢١ عن تطبيق **المنهج القرآنى فى مجال القضاء. فجاء هذا الباب على اختصاره جامعاً مانعاً**، وفيه

اجتهادات وإضافات جديدة، ليصبح بحق مرجعًا لكل باحث فى هذا الخصوص. وما أدق وأروع أن يصور الكاتب القضاء فى الأمة كالعدسة المكبرة لما وراءها حتى الأثر «انظر كيف تصدر الأحكام فى أمة تعرف مقدار حضارتها»، مؤكدًا أنه إذا كان التوحيد أساس الإسلام فإن العدل جماعه؛ به استقر واستمر وانتشر، وأن سيادة القانون أو النظام تعنى فى جوهرها سيادة القضاء.

وما أجمل أن يسلط المؤلف الأضواء على **كتاب الخليفة عمر بن الخطاب** إلى كل وال وقاض بقوله: «ساو بين الناس فى مجلسك.. ووجهك وقضائك، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك.. وإياك والغضب والقلق والضجر والتأذى بالناس»، ويذكر لنا كيف أن **الخليفة على بن أبى طالب** جعل رضى الرعية عن ولاتها وقضاتها علامة صلاح الحكم إذ يقول: «إن أفضل قرة عين الولاة استفاضة العدل فى البلاد بظهوره فى مودة الرعية.. وإنه ليس أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم.. وإنه لا يقدم فى ولاية القضاء سوى الأعلم والأورع»، وأن دلالة الحاكم الظالم تولية منافقيه، وأن يحكم الرعية لمصلحته لا لمصلحتها. ويعرض المؤلف المدقق لمسائل معاصرة يشتد فيها الخلاف **كولاية المرأة** للقضاء، ويبين اختلاف الفقهاء القدامى بشأنها، وكيف جوزها فى جميع القضاء الإمام ابن جرير الطبرى والإمام ابن حزم الظاهرى، بينما قصرها الإمام أبو حنيفة فيما تصح فيه شهادتها فلم يمنعها من القضاء إلا فى الحدود والقصاص، فى حين رفضها أغلب الفقهاء، ولكلٍّ أدلته وأسانيده الشرعية. ثم ينتقل الكاتب بنا إلى مسائل معاصرة أكثر دقة، ليبين لنا أن **القضاة الصالحين أنفع للأمة من القانون** وإن صلح - وإن كان الأنفع أن يجتمع الأمران، وأن من صيانة القضاء ألا يشترك القاضى فى السياسة وفى غير شئون القضاء، وإن جاز له المشاركة بالرأى فى المسائل العامة البعيدة عن قضاياه، فالرأى حر، وإبداؤه واجب، بخلاف المشاركات فى الولايات «فنهايتها المساس باستقلال القاضى، وربط له بعجلات الإدارة أو شهوات الساعة أو فرطات الساسة، وما أكثرها».

فرنسيس بيكون والمنهج العلمى المعاصر

أفرد المؤلف فصلاً واسعًا من صفحة ١٦٧ إلى ٢٣٨ عن المنهج العلمى المعاصر،

وعن المفكر الإنجليزى فرنسيس بيكون (١٥٦١/ ١٦٢٦م) الذى نسب إليه هذا المنهج، حيث ندد بجلاء وقوة فى كتابيه (تقدم العلوم)، و(المنهج الجديد) بمنطق أرسطو، داعيًا إلى ملاحظة الطبيعة بالكشوف التجريبية لا بالمنطق العقلى على طريقة أرسطو، منبهًا إلى ما يصيب الذهن من تشويش عندما يدرس «الكلمات» لا «الأشياء»، وأن مهمة الإنسان هى تفسير الطبيعة، وأن سبيله إلى ذلك أن يتحول من دراسة الألفاظ إلى دراسة الأشياء؛ ليتوصل إلى معرفة قوانين الطبيعة، وبدلاً من أن يستخلص حقائقها مشوهة بالاستنتاج المنطقى كأرسطو، يستخلصها ـ كما يقول ـ صائبة بالتجربة والاستقراء، ويرى أن **أعمال المصلحين بطولات محلية ومؤقتة، فى حين أن اختراعات العلماء هى خلق وتقليد للعمل الدينى، ونعمة للبشرية كافة. وفى كتابه «الأورجانون الجديد»** فى مقابل منط أرسطو الذى سماه تلاميذه «أورجانون»، يتكلم فرنسيس بيكون عن أصنام أو معوقات الفكر الأربعة «أصنام القبيلة، وأصنام الكهف، وأصنام السوق، وأصنام المسرح»، **وكيف أخطأ الناس حين حسبوا أن فهمهم يحكم الألفاظ فى حين أن الألفاظ، هى التى تحكم الأفهام، وكيف ضلت الإنسانية طريقها قرونًا طويلة فى متاهات الألفاظ** الجوفاء، وعبث التصورات، والقيادة الزائفة لأرسطو وتلاميذه.

وأظهر المؤلف المدقق أن فرنسيس بيكون قد استفاد من سلفه روجر بيكون الذى توفى عام ١٢٩٤م وكان من أحبار الفرنسيسكان الإنجليز. وقد حصل على الدكتوراه فى اللاهوت من باريس، واشتغل بالطبيعة والكيمياء فى دير «كوردلييه» بباريس، ثم تعلم العربية فى الأندلس، وأكب على دراسة الحسن بن الهيثم والكندى وابن رشد. وقد تأثر للغاية بالفكر والمنهج الإسلامى، فتراه ينتقد بشدة منهج أرسطو، ويصرح فى أكسفورد «أن وجود الفكر الأوروبى والعلم الأوروبى كان مستحيلاً لولا وجود المعارف العربية.. لقد دعيت أوروبا فجأة إلى الحياة بعد أن ظلت فى ظلمات الجهل خمسة قرون.. وهى مدينة لها بكل تقدمها».

ويتابع المؤلف المدقق تحقيقاته فيبين أن الراهب الألمانى ألبرت الكبير فى القرن الثالث عشر انشغل بالكتب العربية، فترجم مؤلفات ابن سينا والغزالى، ثم ألف كتابًا بعنوان: **«مآثر العرب»، ويدل عنوان الكتاب على تأثير العرب فى أوروبا** بمثل ما يدل وصف هذا الراهب الكبير على أثره فى الفكر الكنسى، وهو أستاذ القديس توماس الأكوينى.

ولقد ذاعت شهرة القديس توماس الأكوينى (١٢٢٥/ ١٢٧٤م ـ ٦٢٢/ ٦٧٣هـ) حيث تلقى علوم العرب من مصادرها فى صقلية، وكان يستشهد فى كتابه الشهير «مسائل جدلية» بأفكار ابن رشد حتى يكاد يكون مجرد ناقل عنه، وقد عرف بمعارضته للإمام الغزالى بحجج الفارابى وابن رشد.

ويبين المؤلف الموسوعى فى هذا الفصل كيف أن الفتوح العلمية تمت على يد المسلمين واستفاد منها العالم أجمع، وأن مرد ذلك هو دينهم الإسلامى «واختصاصهم» بل **«تفردهم» وقتئذ بالمنهج التجريبى، الذى شرعه لهم دين يعلن حرية العقل** ويوجب استعماله، ويستبعد كل ما يعطله، ويأمر بالتعليم والتعلم واستقراء طبيعة الأشياء وواقع الظواهر الكونية، توصلاً للحقائق التى هى ضالة المؤمن. وإنه كان من سنن الله فى كونه، أن يؤاخذ الدولة الإسلامية بظلمها وجهلها وتفرقها فترجع القهقرى، فى حين تتقدم الدول الأوروبية بالعلم والعدل، وتكشف عن العالم الجديد، وتحدث الثورة الصناعية حتى عظم أمر الاستعمار. فنتج عن تخلف المسلمين واستعمار الأوروبيين لبلدانهم هوة سحيقة الأعماق فى ضمير التاريخ الأوروبى، أخفى فيها كنوز التراث العلمى الإسلامى، ووجد المتعلمون المسلمون أنفسهم يستوردون العلوم الإسلامية من مراجع إنجليزية وفرنسية وألمانية وإيطالية وإسپانية، ويقنعون بمحاولة إحصاء كتبهم فى خزائن أوروبا، بل يدخل فيما يستوردون من العلوم دراسات فى الدين والسنة النبوية واللغة العربية!! (ص ١٨٨).

وإذ يصحح المؤلف العالم فى هذا الفصل بعض أخطاء بيكون صاحب «المنهج الجديد»، يظهر بجلاء أن ما ادعاه من منهج جديد ليس بجديد، بل هو بعض من كلٍّ سبق به القرآن وعمل به العلماء العرب فى كل فنون العلم. وإذ ينقل المؤلف إلى صفحة ٢٣٤ عن **المستشرق الفرنسى جوستاف لوبون فى كتابه** «تاريخ العرب» قوله: «إن العرب أدركوا بعد لأى أن التجربة والمشاهدة خير من أفضل الكتب، وكذلك سبقوا أوروبا إلى هذه الحقيقة التى تعزى إلى فرنسيس بيكون بأنه أول من أقام التجربة والاختبار اللذين هما ركن المناهج العلمية الحديثة، فالمسلمون أسبق إلى نظام التجربة فى العلوم»، فإنه يذكر بحق «لو أن جوستاف لوبون قرأ القرآن كله أو بعضه لعرف أن

العرب لم يدركوا ذلك بعد لأى، وإنما هم مأمورون فى القرآن بالعلم وبمنهجه فى استعمال «العقل»، و«الحواس» أى التجربة الفعلية مع الحرية الكاملة».

ويتابع المؤلف كشف المستشرقين عن المنهج الإسلامى من كتب العلماء التطبيقيين، **فينقل عن درابر فى كتابه (النزاع بين الدين والعلم)** قوله: «كان الأسلوب الذى توخاه المسلمون سبب تفوقهم فى العلم، فإنهم تحققوا أن «الأسلوب النظرى» لا يؤدى إلى التقدم، وأن الأمل فى معرفة الحقيقة معقود «بمشاهدة» الحوادث ذاتها. ومن هنا كان شعارهم فى أبحاثهم هو «الأسلوب التجريبى» وهذا الأسلوب هو الذى أدى إلى اكتشافهم علم الجبر، وغيره من علوم الرياضة والحياة. وإنا لندهش حين نرى فى مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من ثمرات العلم فى هذا العصر».

خاتمة:

والواقع أن كتاب الأستاذ عبد الحليم الجندى عن «القرآن والمنهج العلمى المعاصر» هو من كتب القمة الشوامخ المضيئة على مر الأيام، والتى تتوج وتزين كل مكتبة، وتفيد وتثرى كل قارئ.

ويكفى أن الكتاب يزيدنا اقتناعًا ويعمق إحساسنا بأن الإسلام هو السبيل الوحيد لإنقاذ البشرية من أزماتها على الصعيد المادى والروحى، ولتصحيح «حضارة الأشياء» لتصبح «حضارة الإنسان».

فالحضارة المعاصرة بشقيها الرأسمالى الفردى والماركسى الجماعى، رغم ما حققته من إنجازات مادية، قد انتهت بالإنسان ومجتمعات تلك الحضارة إلى الصراع والتمزق والضياع، واستبدت التكنولوچيا بسلام الإنسان وأمنه واستقراره. والإسلام وحده هو طوق النجاة؛ إذ يحفل بالعنصر المادى، ولكنه يضعه فى خدمة العنصر الروحى ليتألف منهما الوصف الإسلامى. وإنه لم تشك الأمة الإسلامية فاقة أو هوانًا أو ضياعًا أو جهالة، إلا فى تلك الأزمنة التى انشغل فيها أولو السلطة أو الأمر أو العلم أو القدوة بأنفسهم عن دينهم أو جماعاتهم.

وصدق الرسول الكريم حين قال: «**صنفان إذا صلحا صلح حال هذه الأمة، وإذا فسدا فسد حال هذه الأمة، الأمراء والعلماء**»[1]. **وفى رواية أخرى: «اثنان لو صلحا، صلح الناس كلهم، الأمراء والعلماء**»[2].

لقد جاء القرآن الكريم بأمرين:

«حقائق توفيقية»، و«حقائق توقيفية». **أما الأولى**: فهى ما تتعلق بالأشياء وسائر مخلوقات الله ـ تعالى ـ فقد دعا المسلمين إلى النظر فيها والكشف عن أسرارها، مما أنتج «العلم التجريبى». **أما الثانية**: فهى ما تتعلق بذات الله وأوصافه وحساب اليوم الآخر وقواعد تنظيم المجتمع.. إلخ، مما لا يستطيع الإنسان التوصل إليه فى صورته الحقيقية المثلى دون وحى ورسل، فقد دعا المسلمين إليها بمنهج متطابق معها، مما أنتج «العلم النظرى» ممثلاً فى علم العقيدة وعلوم الفقه. فهذا هو منهج القرآن: حين يعمل الإنسان فى عالم المادة فإنه يعمل فى عالم يمكن أن يعرفه؛ لأنه مجهز بإدراك أسراره وقوانينه، وحين يعمل فى غير ذلك فهو يعمل فى متاهة واسعة بالقياس إليه وهو غير مجهز ابتداء بإدراك حقائقها الهائلة الغامضة. ولا شك أن للعقل دورًا رئيسًا ومهمًا فى معرفة حقائق الغيب والتشريع، ولكن الخطأ يكمن فى محاولة العقل البشرى معرفة ذلك وحده دون قيادة الوحى وتوجيهه. إن ما يظل العقل وحده باحثًا عنه قرونًا طويلة دون الاهتداء إليه، يتلقاه تلقيًا مباشرًا وسريعًا وكاملاً من القرآن، وفى هذا رحمة وخلاص للإنسانية وهداية للبشرية جمعاء. وصدق الله العظيم فى قوله: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ**﴾ (القصص: ٥٠).

إن أصالة الفكر الإسلامى والإبداع الحضارى للمسلمين يتمثلان فى أعمال الفقهاء والأصوليين، وفى توصل أئمة الإسلام إلى قواعد المنهج العلمى التجريبى وتطبيقه فى مختلف العلوم التجريبية بما أدى إلى تقدم العلوم الطبيعية، والكيمائية والطبية،

---

(١) أخرجه الديلمى فى «الفردوس»، وأبو نعيم فى «الحلية» عن ابن عباس، وابن عبد البر فى «جامع بيان العلم وفضله» الجزء الأول صفحة ٢٢٦. وفى «فيض القدير» جزء ٤ صفحة ٢٠٩: إذا صلح الراعى صلحت الرعية، والعلماء أمناء الرسل.

(٢) انظر: الإمام العلامة أبو بكر الخوارزمى، فى مؤلفه «مفيد العلوم ومبيد الهموم»، صفحة ٤٠٩ من فصل السلطان، طبعة وزارة الشئون الدينية بدولة قطر سنة ١٤٠٠هـ/ سنة ١٩٨٠م.

والرياضية والفلكية ـ وغيرها ـ تقدمًا عظيمًا لم يشهده تاريخ الإنسانية المكتوب من قبل فى أية حضارة أخرى سابقة أو تالية للحضارة الإسلامية.

ودعوة المؤلف منهجيًا وموضوعيًا هو أن يكون مرجعنا ومعيارنا الذى نرجع إليه ونزن به كل فكر وكل تشريع وكل نظام وكل علم، هو القرآن والسنة، وإنه لن تصحو أمة الإسلام وتتوحد إلا بما قامت به وتوحدت، وهو الاجتماع على القرآن والسنة، **والذى يجب أن نتوخاه فى المنهج، هو ألا نقبل على القرآن وفى أذهاننا فروض وأفكار مسبقة غريبة عنه، ثم نبحث فيه عما يؤيد ما فى أذهاننا من نظريات وأفكار**. وإن من يقبل على القرآن الكريم وفى نفسه ابتغاء معرفة الحق وحده يهديه الله ـ تعالى ـ ويفتح له كنوز معرفته بقدر تقواه، وصدق الله العظيم ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ**﴾ (البقرة: ٢٨٢)، وصدق الأثر النبوى «ومن يعمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم» هذا، ولا أجد خير ما اختم به هذه الدراسة عن كتاب «القرآن والمنهج العلمى المعاصر»، سوى **ما ذكره المؤلف بقوله فى صفحة ٢٣٨** «الكتاب الحالى خطاب موجه للحاضر والمستقبل معًا، باقتدار المنهج القرآنى علي إبلاغ الفكر الإنسانى أعلى مبالغه. ولقد آن للمسلمين الذى يتوثبون للتقدم ويتشوقون إلى العلم أن يدركوا أن عندهم مفاتحه، وأنهم إذ يعملون به يستردون تقدمه ولا يستوردونه».

ولا يفوتنى أن أشير إلى ما تميز به هذا الكتاب من فهارس متعددة تيسيرًا للباحث، فلم يقتصر شأن سائر الكتب على فهرست الموضوع وفهرست المراجع، وإنما اشتمل أيضًا على ثلاثة فهارس إضافية هى: فهرست المسائل، وفهرست البلدان، وفهرست الأعلام.

وإذا كان هناك من رجاء فهو أن يتفضل المؤلف الكبير فى طبعته القادمة ـ حيث علمنا الإقبال الشديد على كتابه، وأنه على وشك النفاد من السوق ـ فيتوسع فى الفصل الخاص بأئمة وعلماء الإسلام التجريبيين، وكذا أن يذكر بالهامش مراجع الاقتباسات العديدة التى أوردها على لسان جهابذة الإسلام وقادة الفكر الإنسانى، وذلك بالإشارة إلى أسماء مؤلفاتهم التى أخذ عنها، وتاريخ طبعتها وناشرها وأرقام صفحاتها، وقد يكون فى ذلك بعض العسر؛ إذ لا تقل هذه الاقتباسات الرائعة والمنتقاة بدقة عن العشرات بكل صفحة، ولكنه مجرد رجاء وأمل.